القلق الشعوبي كدافع للتغير الاجتماعي

الكاتب: صفوان قسام

التصنيف: دراسات القعد الاجتماعي

جميع حقوق النشر ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مرصد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا الإعلامي©.

القلق الشعوبي كدافع للتغييّر الاجتماعي

صفوان قسّام

نستفيق على أخبار الفيروس وننام على أخباره، ونربط مخطط يومنا وأسبوعنا وربما شهورنا بما تقتضيه الوقاية، ونترقب قرارات الحكومات والدول لنبرمج نشاطاتنا وفقها، وصارت الحياة من وراء النوافذ الزجاجية والإلكترونية.

لم يشهد التاريخ هلعًا أصاب الشعوب قاطبة كما أصابنا هذا الوباء(!)، رغم أن أوبئة أشد فتكًا منه مرت على البشرية وحصدت معها مئات الألوف وأحيانًا الملايين؛ ورغم أن هذا الفيروس نفسه وفق ويكيبيديا موجود بصياغات أخرى وله جائحات سابقة؛ لكن الهلع مبالغ به بشكل ملحوظ كما لو أن من سيصاب به سينتهي به الأمر محترقًا! علمًا أن التقارير الطبية التخصصية الصادرة عن منظمة الصحة العالمية وأطباء بلا حدود وغيرها، كانت موضوعية جدًا فيما يتعلق بالجائحة ومضاعفاتها، حيث صرحت عدة تقارير تخصصية دولية أنه بين ٨٠% – ٩٠% ممن يصابون بالفيروس يتعافوا قبل أن تحدث عندهم أية أعراض وقبل أن يعلموا أنهم مصابون، ونشر موقع "وورلد ميتر" أن ٩٥% ممن تظهر عليهم حالات الإصابة بالفيروس تعاني من أعراض بسيطة ولا تحتاج الدخول إلى المستشفى، أما ٥% فقط تحتاج إلى مستشفى، وهناك تقارير قالت ٤%، ونسبة شفاء من يضطروا للدخول ٨٢% ويتوفى ١٨% منهم، غالبيتهم من كبار السن والمصابين بأمراض مزمنة وخطيرة (٢)؛ لكن الضخ الإعلامي هول الأمر إلى درجة أصابت المجتمعات بما صار

يسمى "الكورونوفوبيا".

إن القلق حسب ويكيبيديا، هو: "حالة نفسية وفسيولوجية تتركب من تضافر عناصر إدراكية وجسدية وسلوكية؛ لخلق شعور غير سار يرتبط عادة بعدم الارتياح والخوف أو التردد، غالباً ما يكون القلق مصحوباً بسلوكيات تعكس حالة من التوتر وعدم الارتياح.."(٣)؛ وكما أن هناك تصنيفات عياديه نفسية للقلق من الناحية المرضية؛ إلا أنه أيضا يقسم إلى قلق إيجابي وقلق سلبي، فالقلق الإيجابي يدفعنا كأفراد للدراسة والاجتهاد من أجل الامتحان، أما القلق السلبي فهو يعطل قدرتنا عن الدراسة والمذاكرة والتذكر.

والقلق الإيجابي هو نفسه الذي يدفع الناس للوقاية من الفيروس(٤)، والقلق السلبي هو الذي يصيبهم بحالة من الهلع والمغالاة في الوقاية لدرجة الوسوسة، وتعقيد الحياة واستمراريتها. وبالعودة إلى عصرنا فإن "قلق الإنسان الحديث، أنه أصبح عاجزا عن التقليل من سرعة تغيرات الواقع وأحداثه، واستقراء مسارات الحياة وتغيراتها والسيطرة عليها، مما يجعل إرادة الإنسان وثقته في نفسه محل شكوك دائمة"(٥) لكن القلق لا يقتصر فقط على الإنسان بفرديته بل يتعداه إلى الجماعة الأكبر، فالمجتمع الأكبر، وحتى إلى الأنساق والقطاعات الاجتماعية، والحكومات والدول مجتمعة ومتفرقة.

ولعل أبرز ما يسم المجتمع بأنه مجتمع قلق هو انتشار الإشاعات، حيث يعتبر علم النفس الاجتماعي، أن انتشار الشائعة محكوم بقاعدتين الأولى غرابة الخبر، والثانية مدى محاكاته لمخاوف أو رغبات الناس؛ فالموظف الذي ييأس من زيادة الحكومة للرواتب لتصبح على التوازي مع احتياجاته، ويتمنى لو أنها تفعل – وهو الذي يستدين ليكمل شهره – سيردد خبراً من نوع أن الحكومة ستزيد الرواتب، حتى لو علم أنها واقعة في عجز مالي؛ والأقلية العرقية أو الدينية ستصاب بالهلع والتحفز إن سمعت أن فئة عرقية أو دينية تمثل الأكثرية قامت بالهجوم على أبناء جلدتها وقتلت بعضهم، قبل أن تتحقق من الخبر، وسنجد أن الإشاعة انتشرت بسرعة، فهي تحاكي خوفاً لديها، ولربما كان خوفا اجتماعيا موروثاً نتيجة ممارسات وحوادث سابقة حصلت، أو أنه خوف مزروع من جهات ما بقصد أو دونه. ويرى "غوستاف لوبون" في كتابه "سيكولوجية الجماهير"؛ "أن الأفراد يقعون تحت التأثير السريع والمفاجئ لتصديق ما يمهد السبيل للأساطير والإشاعات فتنتشر بسهولة فائقة. فهناك روحاً واحدة للجماهير (العقل الجمعي)، تخضع لإيعاز قائد أو محرك يديرها ويسيطر عليها"(٦).

إن القلق كما وصفه فرويد هو: "المادة الخام لكل الأمراض النفسية"، وهو ذاته الذي يدفع من يغالي بالوقاية من كورونا إلى قول أنه يفعل ذلك حماية للآخرين أيضاً، فهو قلق على نفسه وقد يكون قلقاً على الآخرين أيضاً؛ ويطال المجتمع الذي يخشى على مستقبله ولا يثق بحكوماته وقراراتها، وهو الذي قد يقسم هذا المجتمع إلى جماعات ومجموعات تفضل أن تتخذ إجراءات للأمن الذاتي بعيدا عن إجراءات الحكومات التي لا تثق بها؛ وهو الذي قد يدفع الأفراد والمجموعات ذاتهم إلى استعداء الآخر واعتباره مصدرا للتهديد؛ وهذا ينطبق على الدول التي تخشى من باقي الدول!! فكرة القلق هذه تعيد ترتيب النسيج الاجتماعي ومنظومة المجتمعات، بناء على مبدأ الثقة والخوف ولكن بشكل واضح جداً لا مجال للتهاون فيه هذه المرة، وهو ما ينتهي بالنتيجة إلى أن يصبح الجميع عدو الجميع وفق نظرية "فخ هوبز".

إن مظاهر القلق من الوباء التي نشهدها على مستوى العالم مفاجئة، بعد أن ظننا أن المجتمعات تجمد لديها الحس بالآخر خلال الأزمات الاجتماعية والحروب التي شهدناها في العقدين الأخيرين، ووضعت الإنسانية أمام سؤال وجودي؛ هل حقا نحن إنسانيون!؟ فعندما صرنا مستهدفين تحركت لدينا غريزة البقاء وشعرنا بالقلق الوجودي، لكننا لم نحس بذات الشيء تجاه الأخرين، بل قد يكونوا مصدرا للرزق كما يفعل تجار الأزمات(٧).

العقل الجمعي، يؤثر على السلوك الفردي لا محال، رغم أن العقلية الفردية هي مكونة للكل وتؤثر به؛ وسلوك الفرد ضمن الجماعة يختلف عنه بعيدا عنها، وهذه الفكرة أكدت عليها مدارس علم النفس الاجتماعي، والمدارس السلوكية.

ففي استطلاع للقلق لدى الشعوب عام ٢٠١٨ مثلاً تربعت قضية الإرهاب على اهتمام عينة الاستطلاع في تركيا، بينما كانت الرعاية الصحية آخر اهتماماتها(٨)؛ واليوم تظهر نتائج سلوك الفرد والعقلية المجتمعية واضحة؛ فحسب إحصاءات وزارة الصحة التركية حتى وقت هذا المقال، تجاوز عدد المصابون ١٧٠٠٠٠ مصاب و٤٦٠٠ متوفى (٩)؛ وهو من المعدلات المرتفعة جداً. ولا تزال رغم كل الاجراءات والقرارات والقوانين الحكومية، تظهر حالات من الاستهتار في الشارع تُفسر من ناحية وجودية، أنها تحد لقرارات الدولة بالدرجة الأولى؛ فالإنسان يدافع عن حريته، في مقابل الخطر الذي يهدد وجوده، ويفرض عليه الحجز والإطاعة؛ لكن ترك قرار حريته لغيره ليقرر مصيرها، مع وجود عقل جمعي يحجب الثقة عن الحكومة والآخرين، ولا يقيم اعتبارا للموضوع الصحي، فإن نوعا من التمرد السلوكي سيظهر معلنا أنه يدافع عن حريته الفردية، وهذا ما يفسر تمرد البعض(١٠).

هذا ينطبق على الدول؛ فالقلق يظهر جلياً في تصرفات الدول، التي عادت إلى القرصنة والبلطجة أحيانا، فقرصنت أمريكا شحنة طبية قادمة من الصين إلى ألمانيا(١١)، واحتجزت التشيك تجهيزات طبية قادمة من الصين إلى إيطاليا تحت ذريعة حماية الأسعار(١٢)، وفرنسا اتهمت مستثمرين أمريكيين بالمضاربة والمزايدة النقدية على شحنة طبية اشتروها من الصين، وفي كينيا اختفت بشكل غامض شحنة تصل إلى ٦ ملايين قناع متجهة إلى ألمانيا أثناء مرورها عبر الدولة الواقعة في شرق أفريقيا، وتراجعت تركيا عن بيع الأقنعة للدول الأجنبية بعد تسلّمها لثمنها، ولا تزال تماطل بتسليمها(١٣)، واستولت ايطاليا على باخرة تحتوي مواد طبية متجهة لتونس، كما حاول قراصنة اختراق الموقع الإلكتروني لمنظمة الصحة العالمية، من خلال شن عدد من الهجمات الإلكترونية(١٤)؛ عدى عن الاتهامات المتبادلة والتوتر بين أمريكا والصين.

لقد بنيت الحضارة الحديثة على القلق وبسببه، وازداد القلق والمشاكل النفسية مع ارتفاع مستوى الرفاهية والتكنولوجيا(١٥)، وتعتبر الأوبئة كالحروب مؤسِسة لتغيرات جذرية في نمط حياة الشعوب وتخلق قيما وأفكاراً وأنماطاً مختلفة حياتيا، بل وتنشئ مدارس فكرية وفنية، كما حصل بعد الحرب العالمية الثانية مع ظهور المدرسة السوريالية فنياً، والوجودية والفوضوية في الفكر والفلسفة(١٦)، ويحصل اليوم من خلال الإبداع المنزلي فترة الحجر؛ والمقاربة الظاهرة الأن أن مشاكل اجتماعية حصلت على مستوى العلاقات الأسرية وارتفعت معدلات العنف الأسري نتيجة الحجر الصحي، بل وحتى العلاقات على مستوى الأصدقاء باتت أقل حميمية وتتخللها الريبة، وكأن حامل الفيروس هو ضامر للضغينة!؛ ترافق ذلك بمشاكل نفسية مركبة بنيت على القلق والاكتئاب، بل وأفضت إلى ظهور "علم النفس الوبائي"، وكما هو معروف فإن القلق ينشئ أسباب بقائه، فالقلق من كورونا ولد القلق من الآخر، والعزلة الاجتماعية ولدت قلقا جديدا،

وبقاء الوضع بهذه الصيغة زاد القلق الاقتصادي وهلم جرى.

ومع ذلك، ورغم الأضرار الاقتصادية الكبيرة، والكساد العالمي، توصل مسح عالمي جديد إلى أن أغلبية الناس في العالم يريدون من حكوماتهم إعطاء الأولوية لإنقاذ الأرواح على حساب إنعاش الاقتصادات!(١٧) رغم أن القلق الاقتصادي كان ولا يزال دافعاً ومحركاً للحروب والجرائم والإبداع والانتاج على حد سواء، وارتبط بالمستقبل، والسعي للشعور بالأمان؛ وأخذ أشكال الطمع والطموح، وكان عاملا من عوامل الصيرورة الاجتماعية، والتطور المجتمعي والحضاري؛ حتى بات الغرب مقصدا حضاريا للجميع، يجازف المئات وربما الألوف للوصول إليه يومياً، حتى لو كلفتهم حياتهم، فاللجوء مقارنة ببلدانهم حياة ذات أمان على شتى الصعد ومنها الأمان الاقتصادي.

القلق الاقتصادي أيضا ارتبط تاريخياً برجال الدين، فهم من كانوا يَعدوا الفقراء بالجنة، وهم من رفع فكرة الأمان من عقولهم وربطها بالإيمان والعبادة والتسليم بأن الرزق مكتوب؛ الأمان الذي طال أيضا حتى الوقاية والتداوي والعلاج، وراح ملايين المؤمنين ضحية هذه الأفكار بأن الإيمان يقي من الآفات وهو ما نرى عجزه اليوم، فالمنطق الديني المتطرف يقول لا علم خارج الدين ولا مُقَدّر خارج القدر.

إن الشعوب القلقة بالمعنى الإيجابي تضع أهدافا واستراتيجيات لضمان مستقبلها، ووقاية نفسها؛ واليوم مع انتشار الهلع والعجز أمام تسارع الانتشار ومفاجئته، وعجز الاجراءات، زادت حدة القلق، والذي تعتبر العدوى من خصائصه، فالقلق معدٍ، مما قد ينذر بنشوب حالات من الفوضى والاضطرابات، التي قد تهلك النظام الاجتماعي، وتقسم المجتمع إلى جماعات؛ وتقضي على النظام؛ فيصبح الجميع عدو الجميع، ويتحول القلق الإيجابي إلى قلق سلبي.

الهوامش:

١. سبيتي، فيديل، سيكولوجية البشر في أزمنة انتشار الأوبئة، عربية independent، https://www.independentarabia.com/، ٢١/٠٣/٢٠٢٠.

٢. جاويش، أسامة، كورونوفوبيا، عربي ٢١، https://arabi21.com/، ٣٠/٠٣/٢٠٢٠.

٣. ويكيبيديا، القلق، https://ar.wikipedia.org/، ٠٦/٠٥/٢٠٢٠.

٤. صلاح، مروة، الوجه المضيء للقلق، ساينتفك أمريكان، https://www.scientificamerican.com، بنك المعرفة المصري، ١٧/٠٥/٢٠١٧.

٥. سبيتي، فيديل، مرجع سابق.

٦. سبيتي، فيديل، مرجع سابق.

٧. المرجع السابق.

8. السهلي، ناصر، ما الذي يقلق شعوب العالم، العربي الجديد، https://www.alaraby.co.uk/، ٠٨/٠٨/٢٠١٨.

٩. https://covid19.saglik.gov.tr/

١٠. السامرائي، نزار عبد الغفار، القلق الوجودي في الرسائل الاتصالية بشأن كورونا، ميدل إيست أون لاين، https://middle-east-online.com/، ٢٩/٠٣/٢٠٢٠.

١١. مسائية – DWمتابعة تحليلية لأبرز أحداث اليوم مع موجز للأخبار، ولاية برلين تتهم واشنطن بمصادرة كمامات طبية في بانكوك، https://www.dw.com/، ٤/٤/٢٠٢٠.

١٢. La rédaction، بعد مصادرة مساعدات صينية الى ايطاليا، ديوان FM، https://www.diwanfm.net/، ٢٣/٣/٢٠٢٠.

١٣. الشرق الأوسط أون لاين، جواسيس وحظر تصدير ومصادرة شحنات... معارك عالمية للحصول على «إمدادات كورونا»، جريدة الشرق الأسط، https://aawsat.com/، ٣/٤/٢٠٢٠.

١٤. TRTعربي – وكالات، القرصنة في زمن كورونا.. عربي TRT، https://www.trtarabi.com/، ٢٤/٣/٢٠٢٠.

١٥. السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ٧/١٠/٢٠٠٩. ص ٥ – ١٠.

١٦. سبيتي، فيديل، مرجع سابق.

١٧. صحيفة سبق الإلكترونية، الخوف من كورونا أم القلق على الاقتصاد؟ .. استطلاع كشف رأي الشعوب، مصر اليوم، https://www.masralyoum.net/، ٥/٥/٢٠٢٠.

المراجع:

- جاويش، أسامة، كورونوفوبيا، عربي ٢١، https://arabi21.com/ ، ٣٠/٣/٢٠٢٠.
- السامرائي، نزار عبد الغفار، القلق الوجودي في الرسائل الاتصالية بشأن كورونا، ميدل إيست أون لاين، https://middle-east-online.com / ، ٢٩/٣/٢٠٢٠.
- السباعي، مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، ٧/١٠/٢٠٠٩.
- سبيتي، فيديل، سيكولوجية البشر في أزمنة انتشار الأوبئة، عربية independent، https://www.independentarabia.com /، ٢١/٣/٢٠٢٠.
- السهلي، ناصر، ما الذي يقلق شعوب العالم، العربي الجديد، https://www.alaraby.co.uk/ ، ٨/٨/٢٠١٨.
- الشرق الأوسط أون لاين، جواسيس وحظر تصدير ومصادرة شحنات... معارك عالمية للحصول على «إمدادات كورونا»، جريدة الشرق الأسط، https://aawsat.com/ ، ٣/٤/٢٠٢٠.
- صلاح، مروة، الوجه المضيء للقلق، ساينتفك أمريكان، https:// www.scientificamerican.com ، بنك المعرفة المصري، ١٧/٥/٢٠١٧.
- مسائية DW – متابعة تحليلية لأبرز أحداث اليوم مع موجز للأخبار، ولاية برلين تتهم واشنطن بمصادرة كمامات طبية في بانكوك، https://www.dw.com / ، ٤/٤/٢٠٢٠.
- وزارة الصحة التركية – الموقع الرسمي، احصاءات الاصابات بفيروس كورونا يوما بيوم، https://covid19.saglik.gov.tr/
- ويكيبيديا، القلق، https://ar.wikipedia.org / ، ٦/٥/٢٠٢٠.
- La redaction، بعد مصادرة مساعدات صينية الى ايطاليا، ديوان FM، https://www.diwanfm.net / ، ٢٣/٣/٢٠٢٠.
- TRT عربي – وكالات، القرصنة في زمن كورونا.. عربي TRT، https://www.trtarabi.com / ، ٢٤/٣/٢٠٢٠.

MENA
RESEARCH
CENTER
مركز أبحاث ودراسات مينا